خصائص السّير العُمانيّة [1]

د. محمد بن قاسم ناصر بوحجام
أستاذ محاضر بجامعة الحاج الأخضر باتة / الجزائر
nacer.b.mohamed@gmail.com

مقدمة

١ - لفت نظر الباحث في التّاريخ العماني ظاهرة كتابة السّير بشكل مكثّف ومتواصل في القرون الأولى للهجرة بخاصّة. واللاّفت للانتباه أكثر أنّ أغلب هذه السّير تأتي بعد وقوع أحداث، أو حدوث ما يحتاج إلى تعليق أو معالجة أو تنبيه أو تغيير.. بمعنى إنّها لم تكن تكتب لأجل التأريخ لذاته، التّأريخ يُقرأ فيما بعد؛ بما يستنتجه الدّارس ممّا في طواياها، وفي سياقات ما يكتب. لهذا نميل إلى إعطائها أبعادًا فكريّة بمختلف إفرازات الفكر ومنتجاته: العقديّة والفقهيّة والثّقافيّة والتّربويّة والسّياسيّة والاجتماعيّة... وقد نشطت السّير في فترات وقع فيها في عمان ما حرّك العلماء والفقهاء والزّعماء لتوجيه إرشادات وخطابات وتنبيهات وتحذيرات وتصحيحات إلى مختلف فئات المجتمع العماني ومن يتّصل بهم..فمثلاً نشطت السّير بعد حدث عزل الإمام الصّلت بن مالك، وما أعقبه من نشوء مدرستين فكريّتين في عمان: الرّستاقيّة والنّزوانيّة، وما نتج عنه أيضًا من نتائج مسّت المجتمع العماني في العمق، من أولى مظاهرها سقوط الإمامة الثّانية في عمان..ووقوع عمان في قبضة الدّولة العباسيّة. وتقدّم هذه السّير في مجموعة السّير والجوابات العمانيّة، وسير العلماء المحبوبيّين، والسّيرة القحطانيّة... ويكون محورها حدث عزل الإمام الصّلت بن مالك وما تركه من آثار كبيرة.

كما نشطت السّير – نوعًا ما - في أعقاب الخلاف الذي حدث في إمامة عبد الوهّاب بن

(١)ألقي البحث في « ندوة كتب السّير الإباضيّة»، التي أقامتها «جمعيّة جربة تواصل» التّونسيّة, مدينة العلوم، تونس، أيّام: ٠٧ – ٠٩ من محرّم ١٤٣٦هـ/ ٣١ من أكتوبر – ١، ٢ من نوفمبر ٢٠١٤م

رستم وما قام به يزيد بن فندبن، وفتنة خلف بن السّمح وغيرهما.. وصدور سير من المشارقة، نظرت في هذه القضايا.

ثمّ تجمع مجموعة من السيّر في عهد اليعاربة، واليعاربة جاؤوا بعد فترة عصيبة مرّت بها عمان بعد عهد النّباهنة وأعمال البرتغاليّين في عمان. «إلاّ أنّ العمانيّين قد نشطوا منذ عهد اليعاربة في تقصّي تاريخهم وفي تدوينه، ونتج عن ذلك ظهور كتابات ومدوّنات تاريخيّة عديدة. يرجع بعضها إلى بداية القرن الحادي عشر للهجرة/ السّابع عشر للميلاد. وازداد عدد تلك الكتب في القرون التّاليّة، بحيث تشكّل ثروة تاريخيّة هائلة، لا غنى عنها للباحث في التّاريخ العماني الحديث...» (١)

ماذا يعني هذا؟ وبماذا نفسّر هذا السّلوك؟ وماذا يعني في التّفسير الحضاري لمسيرة أيّة أمّة؟؟!

٢ - السّير العمانيّة عُدَّت مصادر للتّاريخ العماني، في غياب تدوينه في أوانه؛ بسبب عدم إيلاء الأوائل للتّأريخ أهميّة؛ لاعتبارات ذكرها الدّارسون. لذا يبقى تاريخ عمان مليئًا بالثّغرات والفجوات، التي لا يمكن أن تملأها السّير؛ لأنّها أصلاً لم تكتب للتّأريخ، ثمّ هي تتناول أحداثًا محدّدة، تقدّم بطريقة خاصّة، يغلب عليها الطّابع الفكري، وليس التّاريخي. ولا ننكر أهميّتها؛ بما أفاد منها بعض الدّارسين والباحثين في المجال التّاريخي.

٣ – تاريخ عمان في القرون الأولى للهجرة لم يكتب في أوانه..الاهتمام به جاء متأخّرًا جدًّا..وكان للسّير دور في سدّ بعض النّقص فيه؛ بما يمكن استنتاجه من وقائع وواقعات وأحداث وغيرها. لكنّها تظلّ غير قادرة على نقل كلّ ما حدث وما وقع. مع تسجيل أنّها كانت تنقل هذا التّاريخ مصبوغًا بصبغة خاصّة، متأثّرة بالعوامل والظّروف التي صاحبت كتابة هذه السّير، وخاضعة للأهداف التي كان يرمي إليها كاتب السّير.. ومتلوّنة بألوان التّفسيرات والتّأويلات التي كان يقدّمها صاحب كلّ سيرة.

هذه ملاحظات أوّليّة للسّير العمانيّة، تدفعنا إلى البحث فيها والتّعمّق لمعرفة خصائصها ومميّزاتها وطبيعتها وحقيقتها. نبدأ بتقديم تعريف تقريبي للسّي رض عليه طبيعة هذه السّير.

(١)عمان في التّاريخ، وزارة الإعلام، سلطنة عمان. ودار إيميل للنّشر المحدودة، لندن١٩٩٥، ص: ٢٤٩

تعريف السّيرة

وردت للسّير معانٍ كثيرة في القواميس لغويًّا. منها: السّنّة، الطّريقة، العادة، والهيئة...[1]واصطلاحًا: التّحدّث بأحاديث الأوائل[2] بما أنّ السّيرة تكتب كتابة، وتقدّم بأسلوب أدبي، أو على الأقلّ يراعى فيها جانبا اللّغة والأسلوب...؛ حتّى تقدّم بشكل مقبول[3] نعرض التّعريف الأدبي لها، قد نستعين به في عرض خصائص السّير العمانيّة والملاحظات التي يمكن تقديمها عنها.

يقول الدّكتور سالم المعوش: « هي من الفنون الأدبيّة التي تتّخذ القصّ شكلاً تعبيريًّا، يراد به الحديث عن حياة شخصيّة ما بأسلوب مشوّق، يراعي تاريخها في وجودها الخاصّ والعام، يكتبها أفراد عن أنفسهم وحياتهم وأعمالهم وآثارهم.. أو يكتبون عن سواهم. يتابعون فيها تطوّرها ومراحلها المختلفة وتحوّلاتها في الزّمان والمكان، من حالة إلى أخرى، مراعين وجود الشّخصيّة ضمن بيئتها وعلاقاتها بهذه البيئة ..» [4]و يقول عليّ بوملحم: « هي ترجمة صادقة لإنسان بإعطاء صورة صادقة مشوّقة عن حياته» [5].

إنّ موضوع السّيرة هي حياة فرد في مختلف أبعاد شخصيّته الجسميّة والاجتماعيّة والعقليّة والعاطفيّة والتّاريخيّة، تقدّم بطريقة تتيح للقارئ التّعرّف على هذه الجوانب. هذه الشّخصيّة غالبًا ما تكون من العباقرة أو العظماء أو الأدباء أو الشّعراء أو السّياسيّين، الذين أثروا الحياة، أو أثّروا في محيطهم. أو تركوا آثارًا مهمّة للتّاريخ تشكّل نقطًا مضيئة في حياة البشر. فما هو مكان السّير العمانيّة من هذه التّعريفات والمفهومات؟

للإجابة عن هذا السّؤال نذكر النّقط الآتيّة:

---

(١) ابن منظور لسان العرب، ج٤، ص: ٣٨٨. القاموس المحيط، ص: ٢٠٨

(٢) لسان العرب، ج٤، ص: ٣٩٠

(٣)تناول الدكتور عبد الرّحمن بن سليمان السّالمي – في بعض أبحاثه – السّير العمانية تحت هذا العنوان: « السّيرة العمانيّة كجنس أدبي»، مجلّة نزوى، سلطنة عمان، عدد: ١٩، يوليو ١٩٩٩، ص: ٦٢ – ٧٨

(٤)الدّكتور سالم المعوش، الأدب العربي الحديث، دار النّهضة العربيّة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص: ٣٨٩

(٥)عليّ بوملحم، في الأدب وفنونه، المطبعة المصريّة للطّباعة والنّشر، صيدا، لبنان، (د.ت)، ص: ١٦١

١ – لم تنطلق السّير العمانيّة – التي تعنينا في هذه الدّراسة – من منطلق المفهوم المتعارف عليه في كتابة السّير، كما كانت في القديم، ولم تتقيّد بالمفهوم الذي انبثقت منه لغة واصطلاحًا.

٢ – حدث تطوّر في مضمون المصطلح عبر الفترات المتعاقبة على تاريخ عمان المبكّر في ظلّ الإسلام. ويبدو أنّ هذا التّطوّر حدّدته العوامل أو الدّوافع التي تدفع الكاتب إلى إعداد سيرة، ووجّهتها الأهداف المسطّرة لها. هذا ما جعل الدّكتور مسلم بن سالم الوهيبي يقول: « يبدو أنّ مصطلح السّير عند العمانيّين خاصّة ليس اصطلاحًا ثابتًا، بل طرأت عليه تغييرات جذريّة...لكنّنا نجد أنّ هذا المصطلح في المؤلّفات العمانيّة القديمة يستخدم للدّلالة على بعض الأعمال القصيرة التي تسرد الحديث مع شيء من التّحليل عن حدث من الأحداث.»(١)

إذن للسّيرة عند العلماء العمانيّين خصوصيّة، تختلف بها عن المتعارف عليه في كتابة السّير. يبدو أن مسلّم الوهيبي تأثّر بهذه الخصوصيّة فقدّم التّعريف الآتي للسّير بعد أن أقرّ بصعوبة تقديم تعريف جامع مانع للسّير بعامّة، وعن السّير العمانيّة بخاصّة؛ نظرًا لتنوّع محتوياتها ومناسباب كتابتها،باختلاف الظّروف والدّوافع، واختلاف الزّمان والمكان: « وقد يكون أقرب تعريف اصطلاحي لهذه السّير – من وجهة نظري – هو: أنّها عبارة عن رسائل، في معظمها ذي[ذات] طابع سياسي، تعبّر عن وجهة نظر كاتبها حول مسألة أو مجموعة مسائل عقديّة أو فقهيّة مثارة من الواقع السّياسي أو الاجتماعي أو الدّيني المحيط بالكاتب أو سابق عليه.» (٢)

رغم بروز الخصوصيّة العمانيّة في هذا التّعريف، إلا أنّه غير دقيق للأسباب الآتية:

١ – قصر الباحث طبيعة السّير على الجانب السّياسي، مع أنّ منطلق علماء السّير العمانيّة لم يكن سياسيًّا. إنّما هو عقدي وفقهي، ولكنّ الحسّ السّياسي قد يؤثّر في مناقشات كاتبي هذه السّير، فيبدو وكأنّ عرضهم وتحليلهم سيّاسيٌّ. كان الأجدر أن يقول عنها هي ذات طابع فكري؛ ليكون هذا شاملاً لما تناولوه.

(١) الدّكتور مسلم بن سالم بن علي الوهيبي، « السّير العمانيّة كمصدر أوّلي للعلوم العمانيّة سيرة خلف بن زيّاد البحراني نموذجًا»، أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، وحدة الدّراسات العمانيّة، جامعة آل البيت، الأردن، منشورات جامعة آل البيت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص: ١٣١

(٢) المرجع السّابق، ص: ١٣٠

٢ – في الفقرة أو التّعريف تناقض أو عدم دقّة، فهو يحدّد طابع السيّر بأنّه سياسي، لكنّه يورد مناحي أخرى في السّير: العقدي الفقهي الاجتماعي، الدّيني السّياسي..فيكون – بذلك - الطّابع السّياسي جزءًا من مكوّنات هذه السّير.

مع ذلك سجّل الباحث التّطوّر الذي حدث على مصطلح السّيرة عمليًّا، وليس نظريًّا، أي لا نجد تنظيرًا لها عند العمانيّين، إنّما نستنتج هذه المفهومات من خلال قراءاتنا لتناول الموضوعات في هذه السّير. فإذا كان القرنان الثّاني والثّالث الهجريّان وما بعدهما قد شهدت ظهورًا بارزًا للسّير، بالمواصفات التي ذكرت عن طابع السّير كما سردناها من قبل، فقد وجد في سيرة محمد بن عبد الله بن مداد، في القرن التّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي «تدوين أخبار وفيات أئمّة وعلماء عمان وتراجم الشّخصيّات العمانيّة البارزة التي سبقت المؤلّف.» (١)

هذه الملاحظة أو هذا التّقرير يضيف في محتوى السّير العمانيّة تراجم. وفي القرن التّاسع عشر يستعمل ابن رزيق لفظة سيرة، ويعني بها كتاب، في مؤلّفه: « الفتح المبين في سيرة السّادة البوسعيديّين» وفي القرن الرّابع عشر الهجري / العشرين الميلادي نلتقي مع كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للشّيخ عبد الله السّالمي..» الذي وسّع مفهوم السّير وجعله شاملاً لمفهوم التّاريخ. يقول في مقدّمة كتابه (فإنّه لا يخفى على عاقل أنّ علم التّاريخ ممّا يعين على الاقتداء بالصّالحين، ويرشد إلى طريقة المتّقين. وقد كنت عزمت أن أجمع سيرة تجمع أحوال المذهب... فعجّلت للنّاس السّيرة العمانيّة..» (٢)

في الفقرة السّابقة دلالات أو ملاحظات لابدّ من الإشارة إليها:

١ – ظلّ سائدًا - إلى عهد الشّيخ نور الدّين السّالمي – أنّ من أهداف كتابة السيّرة توجيهها للاعتبار والتّأسّي. يفهم من هذا أنّ الجانب الذّاتي قد يتدخّل في كتابة التّاريخ أحيانًا. تقول سيّدة إسماعيل كاشف: «وقد أراد كتّاب هذه السّير أن يفيد منها الأعقاب والذّريّة، كما أفادوا هم من أسلافهم. ووردت هذه الفكرة في عدّة سير. ومثال ذلك ما ذكره العالم العماني الجليل منير بن النّيّر الجعلاني، في سيرته إلى الإمام غسّان بن عبد الله اليحمدي، إمام عمان في فترة من القرن الثّاني

(١) المرجع السّابق، ص: ١٣٢

(٢) المرجع السّابق، ص: ١٣٢، ١٣٣

الهجري وأوائل القرن الثّالث الهجري(١٩٢ – ٢٠٧هـ) [١]

٢ – ارتباط التّاريخ بالسّيرة في سياق تطوّر الحياة العمانيّة، قد يكون مؤشّرًا على أنّ السّير مصدر أساس في تأريخ الحياة في عمان، وأنّها قامت لتعوّض ما أهمله التّاريخ نفسه. هذا ما يضيف دليلاً آخر على خصوصيّة طبيعة السّير العمانيّة.

٣ – التّطوّر حصل في الكمّ – زيادة على الكيف- إذ أصبحنا في القرن العشرين أمام سير تشتمل على مئات الصّفحات، بعد ما كانت لا تتعدّى ورقات معدودة في بداية التّأليف فيها. [٢]

ما هي خصائص السّير العمانيّة؟

١ – مصدر من مصادر الفكر الإباضي

خضع مفهوم السّيرة عند العمانيّين إلى التّطوّر في مضامينها؛ ويعكس هذا التّطوّر الظّروف التي مرّ بها المجتمع العماني، لذا لم تخضع لمفهوم السّيرة بالمفهوم الاصطلاحي، بل كان للسّير العمانيّة خصوصيّة في كتابتها، وإن بقيت محتفظة بالدّلالة على المنهج والطّريقة والسّنة..القصد منها التّوجيه والإرشاد والاقتداء.. بواسطة تقديم بعض الأحداث والتّعليق عليها، والتّركيز على مكامن العبر فيها. لذا يقول الدّكتور عليان الجالودي: « إنّ هذه السّير في المصطلح العماني أشبه ما تكون بالمذكّرات السّياسيّة والعقائديّة. وتدور حول نسق واحد وهو الوعظ والتّوجيه الدّيني والدّفاع المذهبي، ولم يكن هدفها التّسجيل التّاريخي، بقدر ما كان بيانًا لموقف ديني أو حكم فقهي أو سلامة رأي سياسي. وأنتجت غالبًا من فقهاء أو أئمّة إباضيّين للدّفاع عن عقائدهم إزاء الأحداث المرتبطة بالصّراع حول الإمامة.»[٣]

سيرة الشّيخ محبوب بن الرّحيل من أهمّ المصادر في التّعريف بالمذهب الإباضي وأصوله

(١) السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، ص: ١٠

(٢) عن التّطوّر الذي حدث في مفهوم السّيرة، وفي شكل السّير العمانيّة ومضمونها ينظر أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٣٦ – ٣٨. وعمان في التّاريخ، ص: ٢٤٧ – ٢٥٨

(٣) الدّكتور عليّان الجالودي، « السّير العمانيّة مصدرًا لتاريخ عمان»:، الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ، ص: ٢٠. ينظر أيضًا السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ص: ٦ – ٩

وعلمائه الأوائل [1] وعن أهمّيتها قال الإمام أفلح بن عبد الوهّاب الرّستمي (ت ٢٥٨ه):» عليكم بدراسة كتب المشارقة، لا سيّما كتاب أبي سفيان [2]. ولابنه الشّيخ محمد بن محبوب سيرة أرسلها إلى إخوانه الإباضيّة في المغرب [3]. عالجت هذه السّيرة أكثر من خمسين مسألة: في العقيدة والفقه والأخلاق والسّياسة الشّرعيّة والحدود.. وتناولت موضوعات أخرى كالارتداد والتّقيّة والغزو والجهاد..ودعا فيها الشّيخ إلى الالتزام بمسالك التّقوى، وإلى طاعة الأئمّة... كما كان لهذه السّيرة دور في القضاء على فتنة خلف بن السّمح..وزخرت السّيرة بفقه غزير، وأحكام شرعيّة مهمّة، كشفت عن كفاية صاحبها العلميّة، وتميّزه الفكري، وسجّلت ريادته في تقرير بعض الحقائق، وتأصيل بعض المسائل...[4] لذا كانت سيرته من المصادر التي عرّفت بالفكر الإباضي، وأصّلت أصوله..[5]

بالرّجوع إلى السّيرة القحطانيّة لأبي قحطان خالد بن قحطان، التي بيّن فيها رأيه في حدث عزل الصّلت بن مالك، وما أفرزه من نظرات فيه، وما أنتجه من مواقف سردها وحلّلها بنظرات فكريّة، ركّز فيها على نظريّة الإمامة عند الإباضيّة..بحسب ما يراه هو، مع عرض وجهة نظره في مسألة العزل، وبيّن أخطاء من قام بهذا الفعل، ومن أيّده ومن سار في ركابه،وسرد تطوّر الأحداث في القضيّة ،ومن خلال هذا العرض والتّحليل والمناقشة تسجّلُ أخبار عن عمان.

يقول عبد الحميد الصّمادي: «وبهذا أصبحت سيرة أبي قحطان مصدرًا مهمًّا من الفكر السّياسي الإباضي، حتّى إنّنا نجد أحيانًا في بعض المصادر الإباضيّة في الفقه والفكر السّياسي وغيرها على سبيل المثال لفظ(أبو قحطان. واجتمعت فرق الأمّة على...) دلالة على أهميّة سيرة أبي قحطان كمصدر من مصادر الفكر السّياسي الإباضي. هذا ناهيك عن أنّه ورد في كتاب المصنّف باب خاصّ

(١) ينظر عمان في التّاريخ، ص: ٢٢٢ وما بعدها..

(٢) أبو القاسم البرّادي، رسالة في تقييد كتب أصحابنا. ينظر الدّكتور عمّار الطّالبي، آراء الخوارج الكلاميّة، الجزء الثّاني، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتوزيع، الجزائر، ١٣٩٨ه/ ١٩٧٨م، ص: ٢٨٤.

(٣) ينظر « سيرة الشّيخ الفقيه محمد بن محبوب رحمه الله»، السّير والجوابات، ج٢، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ص: ٢٢٣ – ٢٦٨.

(٤) ينظر الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام، التّواصل الثّقافي بين عمان والجزائر، ط١، مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع، السّيب، سلطنة عمان، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٣م، ص: ١١١ – ١١٩.

(٥) ينظر تعليق الدّكتور فرحات بن علي الجعبيري على هذه السّيرة، كتابه: علاقة عمان بشمال إفريقيا، ط١، المطابع العالميّة، رويّ، سلطنة عمان، ص: ٣٣.

لأحكام أبي قحطان في بعض المجالات الفقهيّة.»[1]

٢ – مصدر من مصادر كتابة التّاريخ العماني

ما تضمّنته السّير العمانيّة من أخبار وسرد الأحداث - التي لم تقصد لذاتها، ولم تكن تذكر لتدوينها- غدت من المصادر التي رجع إليها من كتب عن التّاريخ العماني، بخاصّة كتّاب العصر الحديث. يقول عليان الجالودي: « إنّ القراءة المتمعّنة في التّرتيب الزّمني للسّير التي اشتمل عليها مخطوط سير العلماء المحبوبيّين تشير إلى أنّ جلّها يعود إلى الفترة ما بين القرنين الثّالث الهجري/ التّاسع الميلادي إلى السّادس الهجري/ الثّاني عشر الميلادي (٣٦ سيرة من أصل ٤٢) تنصبّ مضامينها على الأحداث التي رافقت عزل الإمام الصّلت بن مالك(٢٣٧ - ٢٧٣هـ / ٨٥١- ٨٨٦م) من قبل قاضيه موسى بن موسى السّامي متّخذًا من تقدّمه في السّنّ ذريعة للعزل، وتنصيب راشد بن النّظر (٢٧٣ – ٢٧٧هـ/ ٨٨٦ – ٨٩٠م)، ثم عزله بعد خمس سنوات من تنصيبه على يد موسى ابن موسى نفسه.» [2]

يقول عبد الحميد الصّمادي: « تعدّ السّيرة القحطانيّة لأبي قحطان خالد بن قحطان من المصادر المهمّة المبكّرة للتّاريخ العماني في فترة الإمامة الإباضيّة الثّانيّة. حتّى إلى فترة ما بعد سقوطها في ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م بوقت قليل. ذلك أنّ كاتبها كان شاهد عيان للأحداث المهمّة التي رافقت الفترة قبل سقوطها، وبالخصوص مسألة عزل الإمام الصّلت بن مالك، وما رافقها من تراكمات أدّت في النّهاية إلى سقوط الإمامة في يد العبّاسيّين.» [3]

أهميّة هذه السّيرة تكمن في كون صاحبها شاهد عيان على ما حدث، إذ عاصر الأحداث، وأدلى برأيه فيما وقع وما أعقبه من نتائج، وفي كون هذا الحدث أصبح محور سير كثيرة تناولته واستلهمت منه أفكارًا كثيرة، طبعت المرحلة التي وقعت فيها، وأسهمت في تطوّر الحياة

(١) عبد الحميد الصّمادي، « السّيرة القحطانيّة سيرة أبي قحطان خالد بن بن قحطان»، الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ١٨١. ينظر أبوبكر أحمد بن عبد الله الكندي، المصنّف، ج١، منشورات وزارة التّراث القومي والثّقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٣، ، ص: ٢١٥، وج١٥، ص: ٢٦٩.

(٢) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٤٢. ينظر تفاصيل كلّ هذا الشّيخ عبد الله بن حميّد السّالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ج١، ص: ١٢٦ وما بعدها.

(٣) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ١٨٠.

في عمان، بخاصّة في الجوانب الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة..لكلّ ذلك تكون هذه السّيرة والسّير التي تناولت الحدث مصدرًا مهمًّا في تاريخ عمان في بدايات حكم الأئمّة.

ما يبيّن أنّ السّير العمانيّة المبكّرة كانت مصادر للتّاريخ العماني، الذي لم يكتب بسمات التّأريخ...الملامح التي نجدها في الكتب التّاريخيّة التي ألّفت في العصر الحديث، التي حاولت استدراك االنّقص في مجال التّأليف التّاريخي؛ بالإفادة من هذه السّير، وقد أورد أصحاب هذه التّآليف نصوصًا كثيرة منها في كتبهم.. أمثال المشائخ: عبد الله السّالمي في كتابه تحفة الأعيان، وسالم بن حمد الحارثي في العقود الفضيّة، وسيف بن حمود البطّاشي في إتحاف الأعيان. و طالب مهدي هاشم في دراسته الإباضيّة في المشرق العربي.

ممّن اهتمّ بهذه السّير ونشرها قصد الإفادة ممّا تضمّنته من مسائل تاريخيّة، وممّا فيها من أمور أخرى ولكنسون Wilkinson.j.c وفاروق فوزي وسيّدة إسماعيل كاشف وغيرهم. يقول عليان الجالودي « ويلاحظ في الآونة الأخيرة اتّجاه لنشر سير عمانيّة مفردة مع دراسة لهذه السّير. فقد درس أحمد عبيدلي سيرة محمد بن محبوب(ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م). وأعاد زايد بن سليمان الجهضمي نشر سيرة شبيب بن عطيّة العماني، مع دراسة وتحليل للنّصّ واستدراكات على نصّ السّير التي سبق نشره في مخطوط السّير والجوابات. وأعاد جاسم ياسين الدّرويش تحقيق ونشر كتاب الأحداث والصّفات للإمام أبي المؤثر الصّلت بن خميس الخروصي(عاش في القرن الثّالث الهجري/ التّاسع الميلادي). ولعلّ أحدث الكتابات التي أمكنني الاطّلاع عليها حول هذه السّير هي محاولة الباحث العماني عبد الرّحمن السّالمي، وما قام به من جهد طيّب يشكر عليه في عمل تكشيف ببلوغرافي بحصر ما أمكن حصره من سير عمانيّة وترتيبها ترتيبًا زمنيًّا، مع ملاحظات منهجيّة حول هذه السّير» (١)

إذن لئن أغفلت مصادر التّاريخ الإسلامي تناول تاريخ عمان – كما أكّد على ذلك كثير من الباحثين- : هذه الكتب التي هي معتمد الباحثين في الحصول على المادّة التّاريخيّة، وقد كتبها

(١) المرجع السّابق، ص: ٢٢. ينظر عبد الرّحمن السّالمي، « السّير العمانية كجنس أدبي»، مجلّة نزوى، عدد: ١٩، ص: ٦٢ – ٧٨. وأحمد عبيدلي دراسة « السّير العمانيّة كمصدر لتاريخ عمان سيرة محمد بن محبوب»، مجلّة نزوى، عدد: ٢، مارس ١٩٩٥. أورد عليان الجالودي مجموعة من الدّراسات التّاريخيّة الأكاديميّة الحديثة عن التّاريخ العماني، التي أفاد أصحابها من السّير العمانيّة. ينظر أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٢٣.

أساطين التّاريخ أو المراجع فيه.. أمثال اليعقوبي والمسعودي والطبري وابن الأثير...فإنّ في هذه السّير – كما يؤكّد الباحثون العمانيّون – تفصيلات كثيرة عنه في مختلف العصور. « وإن لم يكن القصد كتابة التّاريخ. فلولا وجود هذه السّير لخفيت جوانب سياسيّة وثقافيّة وشرعيّة واجتماعيّة كثيرة، وجوانب أخرى مهمّة تتعلّق بحضارة الإنسان العماني وشخصيّته.» (١)

تقول سيّدة إسماعيل كاشف: « والحقّ إنّ «كتاب السّير والجوابات» إلى جانب كافّة التّراث العماني لهو أصدق من يقدّم للباحثين والمؤرّخين المحدثين تاريخ عمان، وأصدق من ينقض الزّيف، ويكمل النّقص الذي ارتبط بالتّاريخ العماني، إمّا للجهل بتاريخه، أو لعدم الاكتراث به، أو للتّعصّب الأعمى ضدّه.» (٢)

٣ – السّير العمانيّة المصدر الأوّل لسائر العلوم العمانيّة

يرى مسلم الوهيبي أنّ في السّير العمانيّة المادّة الأولى لكثير من القضايا المختلفة. فكثير ممّا جاء في الموسوعات العمانيّة كانت مصادرها السّير. مثل الجامع لابن جعفر، والضّياء للعوتبي، وبيان الشّرع للكندي... في هذه المصنّفات وغيرها نُقولٌ كثيرة من السّير العمانيّة.

« وقد اعتمد المؤرّخون العمانيّون القدماء منهم كالرّقيشي في مصباح الظّلام، والأزكوي في كشف الغمّة، وابن رزيق في مؤلّفاته التّاريخيّة. واللاّحقين كنور الدّين السّالمي وغيره على هذه السّير، وتعاملوا معها كمصدر أوّلي للتّاريخ العماني.. وفي العموم فإنّ هذه السّير تأتي كمصدر مهمّ لدارس مواقف الإباضيّة العقديّة والفكريّة والمواقف السّياسيّة على وجه الخصوص.»(٣)

٤ – متنوّعة في محتوياتها أو كتابتها

هي على أنماط وأشكال متعدّدة، ما يعطيها صفة الخصوصيّة، ما دامت غير سائرة أو منسوجة على ما هو متعارف عليه في كتابة السّير. فهي تبدو في شكل رؤية خاصّة لعالم أو فقيه في موضوع محدّد. وتكون على شكل مراسلات بين أشخاص حول قضيّة معيّنة، أثيرت

(١) المرجع السّابق، ص: ١٣٤.

(٢) السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ص: ٢٦، ١٧.

(٣) المرجع نفسه.

للمناقشة أو وقع فيها جدل.. وأكبر مظهر لها ما وقع من حوار ونقاش وتبادل الآراء وتقابلها بين المدرستين الرّستاقيّة والنّزوانيّة بعد حدث عزل الإمام الصّلت بن مالك وتأتي ردودًا وتحليلات لمسائل بين العلماء. وتكون رسائل يرسلها بعض العلماء إلى بعض الأئمّة لنصيحتهم في أمور معيّنة، وتكتب لبيان بعض قواعد المذهب الإباضي فيما أشكل على النّاس من مسائله.. ومنها رسائل أرسلت إلى الجماعات الإباضيّة في حضرموت واليمن وشمال إفريقيّة في شؤون مختلفة، لكنّها ظلّت مرتبطة بما له علاقة بالمذهب الإباضي..وبعض هذه السّير كانت متضمّنة أخبارًا لأحداث حصلت، ودوّنت في هذه السّير..(١)

من أمثلة هذه السّير، سيرة المنير بن النيّر الجعلاني إلى الإمام غسّان، وسيرة أبي سفيان محبوب بن الرّحيل إلى أهل عمان، وسيرة في أمر هارون بن اليماني، وسيرة أبي سفيان محبوب بن الرّحيل إلى أهل حضرموت، وسيرة أبي الحواري محمد بن الحواري إلى أهل حضرموت، وسيرته إلى أهل عمان، وسيرة أحمد بن محمد بن صالح في أحداث نزوى...(٢)

٥ - البعد الحضاري في السّير

من خلال الموضوعات التي تناولتها السّير، نلمس فيها الحسّ الحضاري أو البعد الحضاري أو الهدف الحضاري في كتابتها؛ إذ كانت تحرص - أغلبها – على البناء والإعداد والتّربيّة والتّكوين. فقد اهتمّ الكتّاب بشرح أصول المذهب الإباضي، وحرصوا على محاربة البدع، ومناهضة الأفكار الدّخيلة على الإسلام. وقاوموا التّطرّف والغلوّ.. كما نقرأ في هذه السّير بعض الشّذرات عن تاريخ عمان في العصر الإسلامي. أكّدوا في هذه السّير على وَحدة المسلمين، ووجّهوا دعوات للقيام بالدّعوة إلى الإسلام، « وتظهر مسألة (الدّعوة والجهاد) في سيرهم المختلفة. ففي سيرة محمد بن محبوب إلى جماعة المسلمين من المغرب، يبيّن الواجب على (الدّعاة السّائرين في الأرض المجاهدين)» كما عالجت بعض المسائل المتعلّقة بالإمامة؛؛ مطلبًا شرعيًّا لإقامة أمور المسلمين، وفصّلوا في الموضوع من منظور عقدي وفقهي وسياسي..

(١)لمزيد من التّفصيلات ينظر مسلّم الوهيبي، المرجع السّابق، ص: ١٣٠، ١٣١. وعبد الرّحمن السّالمي، « السّيرة العمانيّة كجنس أدبي»، مجلّة نزوى، عدد: ١٩، ص: ٦٢ – ٧٨. وعمان في التّاريخ، ص: ٢٤٧، ٢٤٨...

(٢) ينظر كتاب السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، الجزء الأوّل تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ، ص: ٢١ ما بعدها.

تشتمل - أيضًا - على موضوع العلم وبعض الأحكام في نقل أحكام الأخبار والرّوايات... [1]

٦ – تجميع السّير للتّعبئة العامّة

لم يتمّ تجميع السّير العمانيّة في مجاميع – على أقلّ تقدير - قبل القرن العاشر الهجري/ السّادس عشر الميلادي. فنسخة « السّير والجوابات» التي حقّقتها سيّدة إسماعيل كاشف، نسخت عشيّة الثلاثاء السّابع من شهر جمادى الأولى ١٠٠٩هـ.[2] يقابله عام ١٦٠٠م. أي إنّها جمعت في عهد اليعاربة، الذي نشطت فيه حركة جمع السّير ونسخها. إنّ لهذه الحركة دوافعها ودلالاتها:

١ – فيها إشارة أو تسجيل للوعي بأهميّة التّاريخ لتسجيل التّجربة العمانيّة في مجال صنع التّاريخ، الذي كان قد دوّن، ولو على شكل سير، حَفِظَتْ جزءًا منه. هذا الجزء يجب أن لا يضيع. وقد عدّ هذا الجمع لبنة أولى من لبنات هذا الوعي بأهميّة التّاريخ..[3]

٢ – التّطوّرات التي حدثت في الحياة العمانيّة؛ بفعل عوامل داخليّة وخارجيّة، أسهمت في إحداث تغييرات وتحوّلات في مختلف النّواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة.. وقد أثّرت بصفة خاصّة على سلطة الإمامة ونفوذها وتحكّمها في زمام الأمور في عمان..نتيجة لذلك احتيج إلى التّعبئة العامّة؛ بتوظيف عنصر التّاريخ فيها.. البداية كانت جمع السّير والإفادة منها في « التّعبئة العقائديّة ضمن حلقات العلم.» كما ذكر عليان الجالودي[4]

أعطى الباحث أمثلة على هذا التّوجّه بسيرة أحمد بن مداد. وقد أكّد في مفتتح سيرته حين وجّه نقده للإمام محمد بن إسماعيل (٩٠٦ – ٩٢٤هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٨) « على أهميّة الدّور الذي ينبغي أن يقوم به العلماء. فقد أخذ الله سبحانه وتعالى الميثاق على العلماء أن يبيّنوا للنّاس ما علّمهم وأتاهم من العلم...ولا تخرج عن هذا الإطار المبرّرات التي ساقها صاحب كتاب كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة، المنسوب للأزكوي (عاش في القرن الثّاني عشر الهجري/ الثّامن عشر الميلادي) لتدوين كتابه. فهدفه يتمثّل بالحفاظ على المذهب الإباضي وتراثه، عندما لاحظ

(١) ينظر المرجع السّابق، ، ص: ١٠ – ١٦.

(٢) المرجع السّابق،ص: ١٧.

(٣) ينظر الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٣٥.

(٤) المرجع السّابق، ص: ٣٦.

عـزوف النّـاس عـن ذلـك، وقلّـة الكتـب فـي هـذا البـاب بقولـه: (...فقـد دعتنـي الهمّـة إلـى جمـع هـذا الكتـاب وتأليفـه وتلخيـص معانيـه وتصنيفـه، وذلـك لمـا رأيـت أهـل زماننـا قـد غفلـوا عـن أهـل مذهبهـم الشّـريف، ورغبـت أنفسـهم عـن قـراءة الكتـب التـي خلّفهـا السّـلف.» (١)

إذا تذكّرنـا أنّ كتـاب كشـف الغمّـة كانـت مـن مصـادره السّـير العمانيّـة، علمنـا علاقـة الكتـاب بهـذه السّـير، وأدركنـا هـدف الكتـاب مـن التّعبئـة التـي تبنّاهـا المؤلّـف للالتفـاف حـول المذهـب الإباضـي، والتّشـبّع بفكـره للبقـاء فـي خطّـه وفلكـه.

٧– السّـير العمانيّة لون عمانيّ خالص

سـبق أن ذكرنـا أنّ السّـير العمانيّـة المتقدّمـة منهـا – بخاصّـة – عمانيّـة خالصـة، بمـا تناولتـه مـن موضوعـات تخـصّ عمـان وحدهـا، وتـكاد تنفـرد بمعالجـة مسـائل لهـا علاقـة بالإمامـة والمسـتجدّات فيهـا زمانًـا ومكانًـا وأشـخاصًا وجماعـات وأحداثًـا.. يقـول عليـان الجالـودي: « ويتّفـق الباحـث مـع مـن سـبقه مـن الباحثيـن فـي أنّ السّـير العمانيّـة شـكّلت لونًـا عمانيًّـا خالصًـا، مختلفًـا كليًّـا عـن السّـير بمفهومهـا الإسـلامي العـام. وينتظمهـا محـور واحـد هـو الوعـظ والتّوجيـه والدّفـاع المذهبـي. ولـم يكـن الهـدف منهـا بـأيّ حـال مـن الأحـوال التّسـجيل التّاريخـي...» (٢)

٨ – سـجّلت تاريخ عمان بطريقة أفقيّة

وصفـت بعـض الكتابـات التّاريخيّـة الإباضيّـة – ومنهـا السّـير- بأنّهـا عبـارة عـن سـير لأشـخاص، وأنّ التّاريـخ الإباضـي جـاء علـى شـكل طبقـات.. بمعنـى إنّـه سـجّل الأحـداث والمواقـف بشـكل أفقـي، بمـا لا يتيـح الفـرص لربـط الأحـداث بعضهـا ببعـض؛ حتّـى يمكـن الوقـوف فيـه علـى السّـببيّة التّاريخيّـة. والتّاريـخ – كمـا يقـول المـؤرّخ الهولنـدي بيتـر خيـل (جـدال لا ينتهـي) (٣). مـع الاعتـراف أنّ العمانيّيـن الذيـن كتبـوا السّـير فـي القـرون الأولـى لـم يكونـوا يقصـدون كتابـة التّاريـخ أو تسـجيله أو تدوينـه، كمـا لا يجـب التّقليـل مـن أهميّـة التّراجـم وهـذه السّـير، فقـد تمكّنـت مـن بلـورة بعـض الأمـور فـي المذهـب

(١) المرجع السّابق، ص: ٣٨. ينظر الأزكوي، تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة، ص: ١٠٠٩

(٢) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٥٥

(٣) الدكتور طريف الخالدي، بحث في مفهوم التّاريخ ومنهجه، ط١، دار الطّليعة، بيروت، تشرين الثّاني (نوفمبر) ١٩٨٢، ص: ١٠

الإباضي، وقامت بعمليّة إثارة الحماسة في النّفوس للمذهب.

إلاّ أنّ هذا التّناول للتّاريخ وكتابة السّير بهذه الطّريقة أوجد في تاريخ الإباضيّة فجوات وثغرات، لم تملأ ولم تسدّ، أو جُبِرَ النّقص فيها عن طريق التّأويل الخاطئ أو التّفسير غير الصّحيح، وغير النّزيه – أحيانًا – فنتج عن ذلك توجيه الأحداث وجهة غير سليمة.(١)

٩ – تفتقر السّير إلى منهج واضح

بما أنّ هذه السّير لم تكتب لتدوين التّاريخ، وبما أنّها كانت توضع استجابة لظروف خاصّة، لتؤدّي هدفًا محدّدًا، له خصوصيّه البالغة.. فإنّها لم تنسج على منهج واضح، ولا على منهج الكتابة التّاريخيّة. فإنّ هذا لا يعيبها، ولا ينقص من قيمتها؛ فإنّ نهجها أو خطّها كان مسطّرًا بين نقطتي ارتكاز، لا محيد عنها: نقطة المبادئ الثّابتة والأهداف المحدّدة، لذا فإنّ مناهجها تختلف تبعًا لهذا. يقول عليان الجالودي: «...وتفتقر هذه السّير لمنهج التّدوين التّاريخي في أساليب التّدوين أو في طريقة العرض والتّبويب. وبالتّالي جاءت قاصرة عن تقديم صورة واضحة الأبعاد والملامح لتاريخ عمان أو مؤسّسات المجتمع العماني في الفترة التي تغطّيها هذه السّير. غير أنّ هذا لا ينفي إمكانيّة الإفادة منها وتوظيفها التّوظيف الأمثل في قراءة الجوانب المتّصلة بالتّاريخ السّياسي والفكري للمجتمع العماني..» (٢)

بينما لسيّدة كاشف نظرة أخرى للسّير التي حقّقتها، فهي ترى أنّ لكتّاب السّير منهج واضح وعلمي؛ تبعًا لهدفهم من كتابتها، كما ذكرناه سابقًا: « ومنهج الكتابة في هذه (السّير والجوابات) منهج يستند قبل كلّ شيء إلى القرآن الكريم، وإلى الأحاديث النّبويّة، كما يستند إلى كافّة الأصول والمصادر التّاريخيّة.ويتّبع بعض كتّاب هذه السّير طريقة طرح الأسئلة وإعطاء أجوبتها.» (٣)

في الحقيقة لا أجد تعارضًا في تقويم عليّان وتقويم سيّدة كاشف، فالأوّل نظر إلى الموضوع

(١) ينظر محمد بن قاسم ناصر بوحجام، تاريخنا القديم (كيف ندرسه وكيف نحقّقه)، ط٢، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص: ٣٠، ٣١

(٢)أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني ص: ٥٥

(٣)السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، ص: ٩، ١٠

من منظور المنهج التّاريخي، فوجد خللا فيه، والثّانية حلّلت الموضوع انطلاقًا من واقعيّة الظّروف التي كتبت فيها هذه السّير، ومن منطلق طبيعة عرض كتّابها، التي كانت لها أهداف محدّدة، وتوجّه خاصّ. ثمّ إنّ حكم سيّدة كاشف ينطبق على السّير التي وجدت ما بين القرنين الأوّل والسّادس الهجريّين. وعليّان أصدر حكمه على سير تجاوزت هذه الفترة.

رأي علي بن حسن بن خميس اللّواتي واضح ودقيق في الموضوع. حين ردّ على من أعطى للسّير الصّبغة التّاريخيّة. فقال إنّ من خلع عليها هذه الصّفة هو واهم : «إذ المصطلح وكما يفهم من استعمال المصادر العمانيّة، يستعمل للدّلالة على الرّسائل التي يبعث بها بعض العلماء إلى الأئمّة، فيما يتوقّع من الإمام أن يسير عليه. ولا ينكر ما لتلك السّير من فائدة للمؤرّخ من حيث ما يرد فيها من معلومات تعين الباحث، وتخدم غرضه، فيما يشبه الفائدة التي يجنيها الباحث من العلوم المساعدة الأخرى. ومنها علم الفقه. لكن اعتبارها كتابة تاريخيّة علميّة محلّ نقاش وتأمّل.» (١)

الأستاذ عليّ اللّواتي لا يوافق على إضفاء صفة الكتابة التّاريخيّة على السّير العمانيّة، فإنّ هذا يجانب الموضوعيّة، ولا يتناسب مع النّظرة العلميّة لمحتوياتها، لا نجد فيها التّاريخ إلاّ قليلاً، مع أنّ هذا القليل يفيد في معرفة بعض الحقائق التّاريخيّة.إذن لا ينطبق على هذه السّير المنهج التّاريخي، أو قواعد التّدوين التّاريخي للأحداث؛ لأنّنا نجد فيها: « نصًّا عقديًّا وفقهيًّا، ينطلق في إطار مناقشة موقف هذا الإمام أو ذاك، وتلك الشّخصيّة أو هذه.على أساس عقائدي وفكري، يحاول تفسير الموقف أو تخريجه تخريجًا ينسجم مع القواعد الفكريّة أو الفقهيّة المعروفة بين العلماء. وذلك يؤكّد أنّ الكتابة التّاريخيّة المنهجيّة في عمان لم تكن بارزة المعالم حتّى القرن الرّابع الهجري.» (٢)

ذكرت سيّدة كاشف في النّصّ السّابق أنّ منهج أصحاب السّير التي درستها استندت « إلى كافّة الأصول والمصادر. التّاريخيّة» يبدو هذا التّقرير غريبًا؛ بالنّظر إلى قلّة الإمكانات التي تتيح لهؤلاء الكتّاب الحصول على المصادر. فما مقدار أو نصيب هذه الحقيقة من الصّحّة؟

(١)أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني ص: ١٠٤

(٢)المرجع السّابق، ص: ١٠٣

الخاتمة

هذه بعض الخصائص التي تميّزت بها السّير العمانيّة. وهي في مجملها مميّزات خاصّة، تختلف كثيرًا عمّا هو متعارف عليه في كتابة السّيرة. فهي وإن اختلفت عن المألوف، وإن رأى فيها بعض الباحثين قصورًا عن تأديّة مهمّة التّأريخ كما هو منتظر من السّير. إلاّ أنّها كانت ذات فوائد في تأصيل أصول الإباضي، التي احتاج إلى هذه السّير لفرض وجوده، والدّفاع عن فكره ومبادئه. كما كانت هذه السّير مصادر لكثير من الأحداث التّاريخية والواقعات والوقائع.. هي وثائق لعرض الفكر الإباضي في مختلف جوانبه.

لقد كانت محلّ اهتمام الباحثين في العصر الحديث؛ إذ كوّنت نواة لكثير من مصنّفاتهم حول التّاريخ العماني. لحاجتهم إليها في غياب مصادر تاريخيّة خالصة في هذا التّاريخ..

رغم الجهود المخلصة المشكورة التي قام بها الباحثون لدراسة السّير العمانية: جمعًا وتحقيقًا ودراسة..إلاّ أنّ كثيرًا من هذه الدّراسات في حاجة إلى نقد وإعادة النّظر. وبعض التّحليلات تنتظر من يواصل العمل فيها لإثرائها ونقدها وربّما نقضها، وتقديم تفسيرات أخرى لهذه السّير..